73 - السيدة أم رعلة

بلاغتها ورشاد عقلها

أم رعلة واحدة من شواعر العرب المجيدات، ملكت ناصية البيان، وأوتيت فصاحةً في اللسان، كانت ذات ذكاءٍ نادرٍ، وبيانٍ ساحرٍ إذا تكلَّمت دخل كلامها القلوب قبل الآذان، دون حاجةٍ إلى استئذان، وشعرها مهيِّجٌ للمشاعر، وآسرٌ للخواطر، يحسبه السامع كأنه تغريد، فيهتف لها: هل من مزيد؟!!.

وأحسب أن ذلك من رهافة الإحساس التي يتفاضل فيها الناس - وهو قَبْلُ - من فضل الله على عباده، ومِنَّتُهُ يُفيض بها على من يشاء من حكمته، القائل في كتابه المبين المنزل على نبيِّه المبعوث رحمةً للعالمين: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة: 269].

وقال أيضاً: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: 20].

وقد وفدت أم رعلة على رسول الله ﷺ في نفرٍ من قومها، فلما دخلوا عليه بادرت أم رعلة بتحية رسول الله ﷺ بتحية الإسلام، فقالت: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، فردَّ عليها رسول الله ﷺ السلام، ثم قالت: يا رسول الله، إنا ذوات الخدور، ومحل أزر البعول، ومنبتات الأولاد، ولا حظ[1] لنا في الجيش، فعلِّمنا شيئاً يقرِّبنا إلى الله ﷻ، ويمنحنا الأجر والثواب.

---

(1) لا حظَّ لنا: أي لا نصيب لنا.

فلما سمع النبي ﷺ جميل كلامها، وحسن منطقها، وبراعة تحليلها، ردَّ عليها بقوله: «**عَلَيْكُنَّ بِذِكْرِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ، وَغَضِّ البَصَرِ، وَخَفْضِ الصَّوْتِ**».

إنها موعظةٌ حسنةٌ كسائر مواعظه ﷺ، فذكر الله أول الخير، وآخر الخير، وكلُّ الخير، والخير كله فيه، ومن ابتغى الخير في غيره فما هو بملاقيه.

وأما غضُّ البصر، ففيه كفٌّ للنفس عن الشهوات، وتطهير لها من الخطايا والموبقات، وتجنيبها ركوب المحرَّمات، قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور: 30].

وأما خفض الصوت، فالله لا يريد مناداته بصوتٍ عالٍ، لأنه يسمع دبيب النملة في باطن الأرض، وفي رؤوس الجبال، وخفض الصوت عند رسول الله ﷺ دليلٌ على التقوى، وموجبٌ للمغفرة والأجر العظيم، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحجرات: 2- 3]، ومن ذا الذي لا يريد أن يُغفر له، وأن يكون من المتَّقين؟.

ورعها

ثم قالت أم رعلة؛ يا رسول الله، إني امرأةٌ مقيِّنة، أُقيِّنُ النساء، وأزيِّنهنَّ لأزواجهنَّ، فهل هو حَوْبٌ[1] فأثبط عنه؟ فقال: «**يَا أُمَّ رَعْلَةَ قَيِّنِيهِنَّ وَزَيِّنِيهِنَّ إِذَا كَسَدْنَ**».

(1) الحَوْب: الإثم والذنب.

ولما توفِّي رسول الله ﷺ بكته بكاءً مرّاً، وأخذت تطوف المدينة باكية حزينة، وهي تقول:

يَا دَار فَاطِمَةَ المَعْمُورَ سَاحَتَها هَيَّجْتِ لي حُزْناً حُيِّيْتِ مِنْ دَارِ

فانقلبت المدينة إلى مأتم، ولم يبقَ فيها دارٌ من دور الأنصار إلاَّ وأصحابها في بكاءٍ ونحيبٍ لفقدَ أغلى حبيبٍ.

رحم الله أم رعلة المؤمنة الوفيَّة، وأحسن نزلها، ورضي عنها، وجعل مقامها في دار الخلود مع المتقين الأبرار.

obeikandl.com